حو "علم النقـــد"

دكتور / سعيد اسماعيل علي

في أواخر مايو من العام الحالي ١٩٩٣ ، سافرت من الكويت ، حيث كنت أقضي في جامعتها فصلا دراسيا أستاذا زائرا ، الي الرياض ، في أجازة عيد الأضحىٰ ، في زيارة لابنتي ، وكان من الطبيعي أن التقي بأخوة وزملاء أعزاء يعملون في جامعتي الرياض : الملك سعود والامام محمد بن سعود .

كان مما التقيت بهم ، الأخ الحبيب ، والصديق العزيز د. محمد عبد العليم مرسي، والذي زاملنا منذ عام ١٩٧٢ – علي ما أذكر – معيدا فمدرسا مساعدا بقسم أصول التربية بتربية عين شمس ، ثم سافر في بعثة الي الولايات المتحدة الأمريكية ، وينتقل من هناك الي جامعة الامام .

ومن بين موضوعات عدة ، أخبرني الصديق العزيز بأنه أعد دراسة عن كتاب (الانتاجية العلمية لأعضاء هيئة التدريس بجامعات الخليج) الذي الفه كل من د. محمد ضياء الدين زاهر ود. محيي الدين توق ، وصدر عن مكتب التربية العربي لدول الخليج ، وأن هذه الدراسة كانت قد أعدت للنشر في (رسالة الخليج) ، ثم رؤي صرف النظر عن ذلك ، حيث رأي أولوا الأمر أنه لا يصح أن يصدر نقد علي صفحات المجلة التي يصدرها المكتب ، الذي صدر عنه الكتاب ، وسألني الدكتور محمد ان كان ممكنا نشرها في مجلتنا (دراسات تربوية) .

الحق أنني ، بصفة عامة ، أحتفي كثيرا بالأعمال النقدية لأسباب سوف أذكرها في حيتها ، ومع ذلك فقد استسمحت صديقنا في إرجاء رأيي النهائي حتي أقرأ الدراسة، ذلك أن الكتاب للدكتور ضياء ، وللدكتور ضياء مكانة عندي يصعب وصفها وصفا عاما ، صحيح أنه لم يتتلمذ علي في مرحلتي الماچيستير والدكتوراه ، ولكنه ، منذ أن كان طالبا في الصف الرابع بقسم الطبيعة والكيمياء ، حيث درست له مقرر أصول التربية ، وأنا أتعامل معه كابن ، مهما تباينت المواقف وأختلفت الظروف وتعددت الأحوال.

وصحيح أن الحق حق ولا ينبغي أن تقف أمام التعبير عنه علاقات شخصية تتسم بالمودة والدفء العاطفي ، لكنني انسان قبل كل شيء ، وأحيانا ما أشعر بضعف أمام بعض المواقف التي ألمس فيها أن اساءة ما قد تنال ابن علميا لي .

فلما قرأت دراسة الدكتور محمد أحسست أنها أميل الي الموضوعية ، وأنها عكست أسلوبه الشخصي الذي يعرفه عنه القريبون منه ، من حيث عفة القلم واللسان ، وان كان هذا لا ينفي امكان التشدد ، أحيانا ، حيث يقتضي الموقف - كما يراه - في اللهجة والعبارة ، ومن هنا فقد سارعت اليه معلنا ترحيبي بنشر الدراسة .

لكنني في نفس الوقت ، آثرت ألا أفاجئ الدكتور ضياء بها ، ومن هنا ظلت الدراسة معي وأنا بالكويت ، حتي عدت في آخر يونية ، ثم حدثته عنها في منتصف يوليو علي وجه التقريب ، بل وأعطيتها له طالبا أن يعد ردا عليها لكي ينشرا معا في عدد واحد . وقد تعمدت أن أخفي اسم الدكتور محمد عبد العليم مؤقتا من علي دراسته ، وشرحت للدكتور ضياء في حينه دافعي الي ذلك ، وما كنت أود أن أشير اليه هنا ، أما وأن ضياء قد أشار في رده الي أنني أعطيته الدراسة دون أن يكون عليها اسم صاحبها لسبب لا يعلمه هو ، فلابد وأن أشرح ذلك .

فأنا أعلم الكثير عن حساسية د. ضياء المفرطة مما يجعل رد فعله أكبر من حجم الفعل في بعض الأحيان ، ومن هنا فقد قدرت أنه سوف يعتبر النقد وكأنه تجريح شخصي له فينبري الي الاحتداد في الرد ، ولم أرد أن يتجه رده الي د. محمد شخصيا ، وينحصر في (الموضوع) ذاته . وبالطبع ، فبعد أن يكتب د. ضياء رده ، كان لابد وأن يعرف صاحب النقد .

ومع ذلك فقد صدق حسي ، فاذا برد د. ضياء يتسم بالحدة والقسوة ؛ الي الدرجة التي جعلتني أضطر اضطرارا الي حذف بعض الكلمات وبعض العبارات ، محاولة مني في حصر الخلاف في حدود (الموضوع) ، والتزاما بالعنوان الذي وضعه تعبيرا عن رده هو صورة من صور (أدب الأختلاف) .

ولم أستطع أن أنشر رد د. ضياء في نفس العدد الذي نشرنا فيه نقد د. محمد ، ذلك أن د. ضياء ، منذ أن تسلم مني مقال د. محمد في منتصف يوليو ، لم يسلمني رده الا في أواخر أكتوبر (بريديا) ، بعد أن كان لابد من دفع مقال د. محمد الي المطبعة في ١٩٩٣/٩/٩ .

ان التجربة الحالية قد تشوبها شوائب ، وقد تتعثر وتترك مشاعر لدي هذا أو ذاك ، ومع ذلك ، فنحن في حاجة الي تواصل هذه التجربة سواء بالنسبة لنفس الموضوع أو بالنسبة لكتابات آخري ، فمثل هذا التواصل سبيل هام علي طريق النضج والصحة السوية.

انني علي يقين من أن نمو الفكر التربوي واثرائه لن يتأتي الا بازدهار حركة نقد

حتي ولو تحولت الي (معارك فكرية) و (منازلات علمية) و (مبارزات كتابية) ، فالتلاقح الفكري هو الذي يولد أفكارا جديدة ، وهذا هو الأمر الذي نفتقده تماما في ساحة الفكر التربوي حتي الآن .

وأني لأعتذر للقارئ الذي يداوم علي متابعة مجلة دراسات تربوية ، لاضطراري تكرار بعض المقولات التي سبق أن رددتها في الأعداد الأولي ، طالما أن الواقع المعني بهذه المقولات ما زال مستمرا في جموده وترديه .

لقد أخذت هذه المجلة علي عاتقها مهمة اثارة الحوار والنقاش حول الانتاج الفكري والتربوي منذ العدد الأول :

- فلقد تعمدنا نشر دراسة للأستاذ محمود أمين العالم نقدا لكتب الفلسفة التي قررت ، علي مدار عهود ثلاثة في الثانوية العامة ، نالتني منها سهام نقد واضحة ، لكي أرفع الحرج عن آخرين ونضرب المثل في ذلك .
- وكان جميلا أن تدفع هذه الدراسة أحد الباحثين هو د. عبدالله ابراهيم بقسم المناهج بتربية الاسكندرية لكي يكتب دراسة يناقش فيها ما ذكره العالم .
- وعندما كتب د. سيد عثمان دراسته المتميزة عن اللاعلمية في محاولات التفسير العلمي لآيات القرآن الكريم ، وعدنا د. فؤاد أبو حطب بأن يكتب مناقشة لها ، وكررنا دعوتنا له شفاهة وكتابة بالمجلة ، لكن ظروفا - فيما يبدو - حالت بينه وبين ذلك ، مما فوت علينا فرصة الاستمتاع بحوار توقعنا أن يكون ثريا .
- وكتب الدكتور عبد السميع سيد أحمد دراسة جيدة عن أزمة الفكر التربوي في مصر استثارني منها جزء خاص بي علي وجه الخصوص ، وجزء عام آخر ، فكتبت في العدد الثاني مقالا أرد به عليه وكانت القضية تحتاج الي تواصل الحوار ، ولكنه انقطع .
- وكم دعوت زملاء وتلاميذ أن يتناولوا بالنقد عددا من الكتب ، فكانت الاجابة الشائعة من زملاء أنهم يخشون (زعل) صاحب الكتاب ، واجابة التلاميذ أنهم يخشون من الانتقام منهم عند التقدم للترقية ، فاضطررت مرتين أن أقوم أنا بمثل هذا النقد ، عسي أن يستثير النقد صاحبي الكتابين ، فيثور حوار ، لكن الصمت كان هو رد الفعل الوحيد .

.. وهكذا

وهكذا تتأكد صحة المقولة الشهيرة بأن أحدا منا لا يقرأ للآخر ، وإن قرأ ، لا

يعلن عن رأيه فيما قرأ ، عن طريق مقال أو دراسة نقدية وفقا للأساليب النقدية المعروفة ، ويكتفي - غالبا - بالتعبير عن رأيه - ان حدث - بكلمات عابرة ، تقال في جلسات خاصة .

كيف يمكن لنا اذن أن نأمل ثراء فكريا مع هذا الحال ؟

فلننظر الي ما يحدث من معارك أدبية وفنية بين النقاد ومنتجي ومبدعي العمل الأدبي والعمل الفني ، نجد أن مثل هذه المعارك تدفع الي مزيد من الابتكار والتجديد والاثراء والتطور الفكري .

اننا ما زلنا نلح وندعو كافة العاملين بالبحث والفكر التربوي أن يتكاتفوا لتحريك الماء الآسن ، فالمركب واحدة ، اذا تأخرت تأخرنا جميعا ، واذا تقدمت تقدمنا جميعا ، واذا غرقت ، لاقدر الله ، انتقلنا جميعا الي رحمة الله ..

وها هو صوتنا يعلو مؤذنا من فوق هذا المنبر :

حي " علي النقد "